الإرهاب العظيم

صدام حسين يهرّب الأسلحة إلى القاعدة بواسطة شبكة من المهربين

■ العلاقات بين المخابرات العراقية وأعضاء القاعدة بدأت منذ عام 1992

■ إيران ساعدت الإرهابيين بدخول كردستان عام 1998

(القسم الثاني)

جيفري غولدبيرغ

4- الأنفال:

كانت الهجمات على حلبجة وغوكتابا وربما 200 قرية وبلدة جزءاً صغيراً من الزلزال الذي أعده ابن عم صدام، الرجل المعروف باسم علي الكيميائي، للأكراد. يقول الأكراد إن حوالي مئتي ألف شخص قد قتلوا (تعطي منظمة مراقبة حقوق الإنسان التي نشرت في مطلع التسعينات من القرن الماضي تقرير "جريمة الإبادة الجماعية العراقية"، وهي دراسة دقيقة متكاملة حول الهجمات، رقماً يتراوح بين خمسين ومئة ألف شخص).

أطلق صدام على الحملة ضد الأكراد اسم حملة الأنفال، وهي حملة ورد اسمها في آية قرآنية كريمة في سورة الأنفال. وجاء في نص هذه الآية: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون".

لم تكن حملة الأنفال غاية في ذاتها، مثل المحرقة النازية، وإنما كانت وسيلة لمثل من السياسة أطلقت عليها سامنتا باور، التي تدير "مركز كار لحقوق الإنسان" في جامعة هارفارد، اسم "إبادة جماعية ذات غاية". لقد أصدرت باور مؤخرا دراسة جديدة بعنوان "مشكلة من جهنم"، وهي دراسة حول الرد الأمريكي على سياسات الإبادة الجماعية. وقالت في دراستها إن "هناك أنظمة وجدت لاغتيال أي مواطن من جنس ما. أما صدام فقد أنجز ما كان يبغيه دون القضاء على آخر كردي". ما كان عليه القيام به، تقول باور وغيرها، هو هدم معنويات الأكراد وإقناعهم أن الرغبة في الاستقلال جنونية.

إن معظم الأكراد الذين قضوا في الأنفال لم يموتوا بالغازات السامة، بل جرت عملية الإبادة، في جزئها الأكبر، بالطريقة التقليدية، في عمليات الاعتقالات الليلية، والإعدام الجماعي، وعمليات الدفن المجهولة الأسماء. إن أجساد معظم ضحايا الأنفال، وأكثريتهم من الرجال والفتيان، لم يجدها أحد.

في أحد الأيام، قابلت واحدة من بين آلاف النساء الكرديات المعروفات بأرامل الأنفال، سلمى عزيز بابان. إنها تعيش خارج جمجمال، في مخيم يتألف ساكنوه بكاملهم تقريباً من عائلات مهجرة، يعيشون في بيوت مصنوعة من الطوب. كان بيتها خالياً تقريباً - لا مفروشات ولا تدفئة، بل مجرد سجادة ممزقة. جلسنا على السجادة بينما كانت تحدثني عن عائلتها. جاءت من منطقة كركوك، وفي عام 1987، تم اقتلاع القرية من جذورها على يد الجيش، وأجبر السكان وآلاف غيرهم من الأكراد، على العيش في مخيمات. بعدها، وفي ليلة من شهر نيسان 1988، دخل الجنود القرية واحتجزوا الرجال والشبان. تم وضع زوج السيدة بابان وأولادها الثلاثة الكبار في شاحنة. قالت لي بابان إن أمهات القرية بدأن يتوسلن إلى الجنود "كنا نصرخ، فعلوا ما تريدوه بنا، فعلوا ما تريدوه! تملك أولادي ذعر شديد. كان أولادي يبكون". حاولت المجيء بمعاطف كي يرتدوها خلال رحلتهم، "كان المطر يهطل. كنت أريد ان يأخذوا المعاطف. رجوت الجنود بان يسمحوا لي بإعطائهم خبزاً. أخذوهم بلا معاطف".

تذكرت بابان أنه في إحدى الليالي، قام أحد الضباط من ذوي الرتب العالية، واسمه بارق، بعملية التفريق، فحسب تقرير "جريمة الإبادة الجماعية العراقية"، التقرير الذي وضعته منظمة مراقبة حقوق الإنسان (هيومان رايتس ووتش)، كان الرجل المسؤول عن هذه الرحلة قائد لواء اسمه بارق عبدالله الحاج حنطة.

بعد أخذ الرجال، وضعت النساء والأطفال على متن شاحنات. أعطوهم قليلاً من الماء أو الطعام وكانوا محشورين على بعضهم لدرجة أنهم اضطروا إلى التبرز حيث وقفوا. أما بابان وبناتها الثلاث وابنها البالغ من العمر ست سنوات فقد نقلوا إلى قاعدة الجيش في توبزاوا ومن ثم إلى سجن نقرة سلمان، حفرة سلمان الذي وصفته منظمة مراقبة حقوق الإنسان عام 1995 على هذا النحو، "كان بناء قديماً يعود إلى أيام النظام الملكي العراقي وربما قبل ذلك. لقد تركت هذا البناء طوال سنوات واستعمله البدو العرب لإيواء قطعانهم. كانت الجدران العارية مليئة بكتابات السجناء السياسيين. على باب إحدى الزنزانات، كتب حارس بالدهان خميني يأكل البراز. وعلى الباب الرئيس، كتب شخص آخر، أهلاً بكم إلى جهنم".

قالت بابان: "وصلنا في منتصف الليل. وضعونا في قاعة كبيرة مع أكثر من ألفي فرد، نساء، وأطفالاً، وأقفلوا الباب علينا. عندها بدأ التجويع".

لم يعط المساجين شيئاً يأكلونه، وكانت هناك ماسورة واحدة تسيل منها مياه مالحة. بدأ الناس يموتون من الجوع ومن المرض. عندما كان يموت أحدهم، كان الحراس العراقيون يطالبون بتمرير الجثة عبر النافذة في الباب الرئيس. وقالت بابان "لم يكن بالإمكان إبقاء الجثث في القاعة". في أولى أيام نقرة سلمان، "مات ثلاثون فرداً وربما أكثر". مرض ابنها الصغير ربوار، البالغ من العمر ست سنوات. "أصيب بالإسهال، كان مريضاً جداً وكان يعرف أنه سيموت. لم تكن هناك أدوية أو طبيب. بدأ يبكي بشدة". ابن بابان مات على ركبتيها. قالت: "كنت أصرخ وأبكي. كانت بناتي يبكين. أعطيناهم الجثة فنقلوها إلى الخارج وأخذها الجنود".

بعد وفاة ابن بابان، وقفت وتوجهت نحو النافذة لترى ما إذا كان الجنود قد أخذوا ولدها لدفنه. قالت: "كان هناك عشرون كلباً خارج السجن. كان بينها كلب أسود كبير هو زعيمها. لقد طمر الجنود أجساد الموتى في حقل. نظرت إلى الخارج فرأيت رجلي ويدي ولدي في أنياب الكلاب. كانت الكلاب تأكل ولدي". توقفت عن الكلام قليلاً، ثم قالت: "عندها فقدت عقلي".

وصفت بابان نفسها بأنها أصيبت بالإغماء والتخشب. راحت بناتها يفتشن عن طعام وماء. لقد تركوها على قيد الحياة إلى أن تمكنت من النهوض مجدداً. كان ذلك خلال رمضان. لقد أبقونا في سجن نقرة سلمان لشهور قليلة أخرى.

في أيلول، عندما انتهت الحرب مع إيران، أعلن صدام عفواً عاماً عن الأكراد، الشعب الذي اعتقد هو أنهم قد خانوه بوقوفهم إلى جانب إيران. لقد أطلق سراح النساء، والأطفال، والمسنين في نقرة سلمان، لكن في معظم الحالات، لم يكن بإمكانهم العودة إلى أماكن سكنهم، فقد دمر الجيش العراقي حوالي أربعة آلاف قرية بالجرافات، ومنها بيت بابان. وفي النهاية أعيد إسكانها في قطاع جمجمال.

في الأيام التي تلت إطلاق سراحها، حاولت معرفة مصير زوجها وأولادها الثلاثة الكبار. لكن الرجال الذين احتجزوا في الأنفال لم يبق لهم أثر. لقد قيل إنهم اغتيلوا ودفنوا في مقابر جماعية في الصحراء على الحدود مع الكويت، لكن لا يعرف حالياً عنهم إلا القليل. وقيل لي ان عدداً كبيراً من أرامل الأنفال لم يزلن يعتقدن أن أزواجهن وأولادهن ما زالوا محتجزين في سجون صدام. "نعتقد أنهم أحياء" قالت بابان بالإشارة إلى زوجها وأبنائها. "على مدار الساعة نفكر أنهم ربما كانوا أحياء. فإذا كانوا على قيد الحياة، فأنهم يخضعون للتعذيب، أنا أعرف ذلك".

قالت بابان إنها لم تنم جيداً منذ أن أخذ أبناؤها منها. قالت "تفكر، أرجوكم أبلغونا إذا كانوا قد ماتوا. سوف أنام بسلام. رأسي مليء بأفكار رهيبة. عندما أموت، لن أتذكر أن الكلاب أكلت ولدي".

قبل أن أغادر، سألتني بابان أن أكتب أسماء أبنائها الثلاثة الكبار. إنهم شيرزاد الذي قد يكون الآن في سن الأربعين، رزغار الذي قد يكون في الحادية والثلاثين، ومحمد الذي قد يكون في الثلاثين. وطلبت مني أن أجد أولادها أو أن أسأل الرئيس بوش أن يجدهم. قالت "إن واحداً سيكون كافياً. إذا عاد واحد فقط فسيكون كافياً".

5- السجناء

بعد مرور أسبوع واحد، كنت في شنوي، وهي سلسلة جبلية خارج حلبجة، برفقة مجموعة أخرى من البشمرغا. كنا أنا ومرافقي قد قدنا سيارتنا صعوداً لمعظم الطريق ثم شققنا طريقنا مشياً على الأقدام بصعوبة عبر الثلج المتساقط حديثاً. كان باستطاعتنا أن نرى، من إحدى القمم، قرية بيارة القابعة في واد يقع بين حلبجة وجدار أي الجبال تبين الحدود الإيرانية. كانت دبابات صدام تبعد مسافة سير ساعة واحدة بالسيارة باتجاه الجنوب، وكانت الأراضي الإيرانية تملأ الأفق الزراعي أمامنا. كانت تحتل قرية بيارة وتسع قرى أخرى مجموعة إرهابية تدعى أنصار الإسلام. والواقع أنه من الممكن إطلاق اسم محور الشر على منطقة شنوي.

كنا قريبين بدرجة تكفي لمشاهدة شاحنات مجموعة أنصار الإسلام وهي تتنقل بين قرية وأخرى. قال قائد قوات البشمرغا المحيطة بقرية بيارة، وهو محارب قديم يدعى رمضان ديكونة، بأن مجموعة أنصار الإسلام مكونة من متطرفين مسلمين أكراد ومن عدد مجهول من ما يعرف بالعرب الأفغان، وهم عرب قدموا من جنوب العراق ومناطق أخرى، تلقوا تدريبهم العسكري في معسكرات تنظيم القاعدة.

قال ديكونة وهو يهز برأسه، "يعتقدون بوجوب إشاعة الرعب في قلوب الناس. ويؤمنون بأن القرآن يسمح بذلك." وأضاف، مشيراً إلى قرية مهجورة تقع في البعد الأوسط عن موقعنا وتدعى خلي حما، "في هذا المكان ارتكبت المجزرة". في أواخر أيلول قتل اثنان وأربعون من رجاله على يد أنصار الإسلام وقد بدا الآن أن ديكونة وقواته باتوا مستعدين لأخذ الثأر. سألته ما سوف يفعل فيما لو تمكن من أسر الرجال المسؤولين عن القتل، فأجاب، "سوف أقدمهم للمحاكمة".

عندما بلغت السليمانية، قمت بزيارة سجن تديره دائرة الاستخبارات التابعة للاتحاد الوطني. يتصل السجن بالمقر الرئيس لدائرة الاستخبارات ويبدو في حالة جيدة تنظيمياً وإنسانياً، يعيش في كل زنزانة جماعية حوالي عشرين سجيناً لديهم مدافئ تعمل بالكاز، وحتى تلفزيونات فضائية. سمحت لي دائرة الاستخبارات بأن أتحدث لمدة يومين مع أي سجين يوافق على مقابلتي. كنت حذراً، فقد كان لدى الأكراد مصلحة واضحة في الاصطفاف إلى الجانب الأميركي في الحرب ضد الإرهاب، ولكن حسب معرفتي، لم يجبر المسؤولون عن السجن أي سجين على التحدث معي ولم يتكون لدي الشعور بأن الآسرين قاموا بتلقين السجناء الادعاءات التي أدلوا بها وظهر ان القصص، التي تأكدت في وقت لاحق من صحتها من خبراء في المنطقة، تستحق في الأقل اهتمام الولايات المتحدة ودول أخرى في الغرب.

شملت الادعاءات الاتهامات بأن أنصار الإسلام تلقوا أموالاً من القاعدة بصورة مباشرة، وان دوائر الاستخبارات التابعة لصدام حسين تسيطر، بصورة مشتركة مع عملاء القاعدة، على أنصار الإسلام، وان صدام حسين يستضيف منذ عام 1992 في بغداد قائداً رئيساً لتنظيم القاعدة، وان عدداً من أفراد تنظيم القاعدة الذين فروا من أفغانستان أدخلوا بصورة سرية إلى المنطقة الواقعة تحت سيطرة مجموعة أنصار الإسلام، وأن عملاء الاستخبارات العراقية هربوا أسلحة تقليدية وربما أسلحة كيميائية وبيولوجية إلى داخل أفغانستان. فإذا كانت هذه الاتهامات صادقة فإنها تعني أن العلاقة بين نظام صدام حسين والقاعدة أشد متانة مما كان يعتقد في السابق.

عندما سألت مدير دائرة الاستخبارات للاتحاد الوطني، التي تضم أربعة وعشرين رجلاً، عن السبب الذي جعله يسمح لي بمقابلة السجناء، أجابني بأنه يأمل بأن تنقل هذه المعلومات إلى المسؤولين الأمريكيين في دوائر الاستخبارات. قال لي، "لم يأت إلى هنا حتى الآن ممثلون عن مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة الاستخبارات المركزية". وأضاف مساعده، "يذهب الأمريكيون إلى الصومال والفيليبين وأمكنة أخرى لا أعرفها بحثاً عن الإرهابيين، ولكن هنا هو الموقع الذي يتوجب عليهم البحث فيه." وقد أخبرتني انيا غيلشر، الناطقة باسم وكالة الاستخبارات المركزية، في الأسبوع الماضي، أن الوكالة تتبع سياسة عدم التعليق على نشاطات ضباطها. وقال جيمس وولسي، المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية والداعي إلى قلب نظام الحكم في العراق، "قد يكون من الخزي فعلاً إذا كان العداء الاستخبارات المركزية تجاه مجموعات المقاومة الديموقراطية العراقية يمنعها من التعرف على روابط صدام بتنظيم القاعدة في شمال العراق".

يشكل احتمال إمكانية تزويد صدام لأسلحة الدمار الشامل إلى مجموعات مناهضة للأمريكيين حجة قوية لدى دعاة "تغيير النظام"، كما تسمى في واشنطن عملية إزالة صدام عن الحكم. ويؤكد منتقدو صدام أن قدراته الكيميائية والبيولوجية، وسجل دعمه للمنظمات الإرهابية، ووحشية حكمه، تجعل منه تهديداً يتجاوز بكثير المواطنين العراقيين. يقول كنعان مكية، أحد المعارضين العراقيين، "انه عنوان الدار لمن يرغب باستعمال أسلحة كيميائية وبيولوجية." كان مكية قد نشر بحثاً بعنوان "جمهورية الخوف" حول نظام حكم صدام. ويضيف، "انه سوف يكون الجهة التي تثير قلقنا، فلديه المختبرات والبراعة، وهو عاقد العزم على محاولة إيجاد مسار إلى القتال، دون الإعلان عن ذلك".

ظاهرياً، يبدو أن قران النظام المدني لحزب البعث الذي يرأسه صدام مع تنظيم القاعدة الأصولي غير محتمل. إن علاقته مع المجموعات الفلسطينية الدينية معروفة جيداً. ويعتقد أن كلاً من أبو نضال وأبو العباس، وهما إرهابيان فلسطينيان معروفان، يعيشان في بغداد (أعلن عن وفاة أبو نضال مؤخراً). ولكن قبل حوالي عشر سنوات تحول صدام من خلال ساحة المعركة إلى نوع من الاعتناق لشكل أصولي من الإسلام.

من جهة أخرى، كانت الثقافة الكردية التقليدية منيعة تجاه التطرف الديني. استناداً إلى مسؤولين أكراد، نمت مجموعة أنصار الإسلام من فكرة نشرها أيمن الظواهري، الرئيس الأسبق لجماعة الجهاد الإسلامي المصرية والذي أصبح الآن نائباً لبن لادن في قيادة تنظيم القاعدة. اخبرني كريم سنجاري، وزير داخلية منطقة كردستان الخاضعة لسيطرة الحزب الديموقراطي الكردستاني، "هناك مدرستان فكريتان. فبينما يعتقد أسامة بن لادن انه يجب تحطيم رؤوس الكفار، يعني الولايات المتحدة، تدعو فلسفة الظواهري إلى وجوب محاربة الكافر حتى في أصغر قرية، ووجوب محاولة تشكيل جيوش إسلامية في كل مكان. وقد تأثر الأصوليون الأكراد بفلسفة الظواهري".

كان الأكراد من بين الأوائل الذي سافروا إلى أفغانستان، آتين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، أولاً من اجل محاربة الجيوش السوفياتية، في أوائل الثمانينات من القرن العشرين، ومن ثم الانضمام إلى صفوف القاعدة. استناداً إلى تأكيدات مسؤولين في دائرة الاستخبارات الكردية، أمضى أعضاء مجموعة أنصار الإسلام وقتاً طويلاً في أفغانستان. واستناداً إلى سنجاري، اصبح المدعو ملاكريكار، أحد القادة الأوائل للحركة الإسلامية في كردستان الذين انتقلوا إلى أفغانستان، يحمل لقب "أمير" أنصار الإسلام.

في عام 1998، اجتازت أول مجموعة من الإرهابيين الإسلاميين الحدود الإيرانية ودخلت كردستان وسيطرت فوراً على مدينة حاجي عمران. قال المسؤولون الأكراد إن إيران ساعدتهم لان لديها مصلحة أيضاً في تقويض قيام حكومة مسلمة مدنية. أضاف سنجاري، "سد الإرهابيون الطرق، وقتلوا أعضاء في الحزب الديموقراطي الكردي وهددوا القرويين. حاربناهم وهربوا". تشتت المجموعات الإرهابية بصورة متكررة. استناداً إلى تقرير

الصادرة في لندن، ظهرت مجموعة أنصار الإسلام إلى الوجود في أول أيلول من السنة الماضية عندما توحدت مجموعتان هما، التوحيد، التي دبرت اغتيال ابرز سياسي مسيحي في كردستان والتي بادر المنتمون إليها بتنفيذ حملة لمهاجمة النساء غير المحجبات بقذف الحمض باتجاههن، ومجموعة أخرى أطلقت على نفسها اسم وحدة سوران الثانية، والمنتسبة إلى أحد الأحزاب الإسلامية الكردية. في بيان صدر اثر عملية التوحيد، أعلنت مجموعة أنصار الإسلام، التي كانت تدعى في الأصل جماعة جند الإسلام، عن نيتها في "مباشرة الجهاد في هذه المنطقة" بغية تنفيذ "إرادة الله." استناداً إلى مسؤولين أكراد، كان للمجموعة ما بين خمس مئة وست مئة عضو يضمنهم الأفغان العرب، وما لا يقل عن ثلاثين كردياً عراقياً دربوا في أفغانستان.

يقول مسؤولون أكراد إن عملية التوحيد تمت في احتفال أشرف عليه ثلاثة من العرب المدربين في معسكرات بن لادن في أفغانستان وان هؤلاء الرجال زودوا مجموعة أنصار الإسلام بثلاثمئة ألف دولار أمريكي كدفعة أولى. اثر عملية التوحيد مباشرة هاجمت وحدة من أنصار الإسلام، عرفت باسم "فصيل النصر"، قوات البشمرغا في خلي حما وقتلتهم.

كان ريكوت هيوا حسين من بين القاتلين الإسلاميين الذين كانوا في ذلك اليوم هناك، وهو شاب نحيل في العشرين من عمره ذو ملامح صبيانية، أسرته قوات البشمرغا بعد تنفيذ المجزرة وهو الذي قابلته في سجن السليمانية. كان خجولاً للغاية لا ينظر إلى ابعد من يديه وهو يتكلم. لم تكن يداه مقيدتين ولم تبد أي آثار تعذيب على الأجزاء المرئية من جسمه. كنا جالسين في مكتب أحد المحققين داخل مجمع الاستخبارات الذي تدفئه مدفأة واحدة تعمل على الكاز، مثل بقية الأبنية في السليمانية. وكانت درجة الحرارة داخل المكتب بالكاد تزيد عن درجة التجمد. اخبرني ريكوت كيف تغلب هو ورفاقه في أنصار الإسلام على قوات البشمرغا.

قال، "اعتقدوا بأنه كانت تسود حالة وقف إطلاق نار ولذلك دخلنا إلى القرية وفاجأناهم بإطلاق النار عليهم. لم يعرفوا ما حدث. استعملنا القنابل اليدوية والرشاشات وقتلنا الكثيرين منهم واستسلم الآخرون." قيد الإرهابيون أسراهم متجاهلين توسلات المدنيين القلائل الموجودين في القرية بتركهم وشأنهم. وأضاف ريكوت، "طلب منا القرويون عدم ذبحهم. غضب أحد قادة أنصار الإسلام ويدعى عبد الله الشافعي وقال: من الذي قال ذلك؟ دعوني أقتلهم".

قال ريكوت إن أفراد البشمرغا قتلوا بطريقة شعائرية، "وضعنا قطعاً من القماش في أفواههم ثم جعلناهم يستلقون على الأرض في صف كالخراف. ثم قطعنا أعناقهم." يقول قادة البشمرغا انه بعد قتل الرجال قطعت رؤوسهم ولكن ريكوت نفى ذلك، وقال، "كانت بعض الرؤوس قد فصلت عن الأجساد بفعل القنابل اليدوية ولكننا لم نقطع رؤوسهم".

سألت ريكوت لماذا انضم إلى مجموعة أنصار الإسلام فقال بهدوء "انضم أحد أصدقائي إليها. لا أجد سبباً جيداً يفسر سبب انضمامي". جاء بعد ذلك أحد حراس السجن وقاد ريكوت من ذراعه وأعاده إلى زنزانته.

حرص المسؤولون في دائرة الاستخبارات الكردية على عدم الإفراط في تبرير قضيتهم. قالوا لا يوجد لديهم أي إثبات يؤكد تورط أنصار الإسلام في الإرهاب الدولي أو إن عملاء صدام حسين متورطون في الهجمات ضد مركز التجارة العالمي والبنتاغون. ولكن لديهم ما يؤكد أن مجموعة أنصار الإسلام تحمي أعضاء القاعدة وأنها تقوم بذلك بموافقة عملاء استخبارات صدام حسين.

قال مسؤولون أكراد انه استناداً إلى استخباراتهم، تم تهريب عدة أشخاص منتمين إلى القاعدة عبر الحدود الإيرانية إلى موقع حصين لأنصار الإسلام بالقرب من حلبجة. ويعتقد هؤلاء أن اثنين يحملان اسمي أبو ياسر وأبو مزاحم هما من قياديي تنظيم القاعدة. اخبرني أحد المسؤولين، "لا نملك أي معلومات حولهما. اعرف تماماً الغرفة التي ينام فيها ملاكريكار وعبدالله الشافعي، القائدان الاسميان لمجموعة أنصار الإسلام".

ويقول هؤلاء المسؤولون ان القائد الحقيقي هو شخص عراقي يحمل اسم أبو وائل، وقد أمضى، كما أمضى الآخرون، وقتاً طويلاً في معسكرات التدريب لبن لادن. ولكنهم يقولون أيضاً انه ضابط برتبة عالية في جهاز المخابرات. وأضاف أحد المسؤولين، "إن شخصاً يحمل اسم أبو عقاب مسؤول عن مكتب المخابرات في الشمال ويعمل بمثابة ضابط مراقبة لدى أبو وائل".

وقال المسؤول إن مقر عمل أبو عقاب هو مدينة كركوك التي تقطنها غالبية كردية ولكنها تخضع لسيطرة حكومة بغداد. استناداً إلى مسؤولين في دائرة الاستخبارات، التقى أبو عقاب وأبو وائل في تموز الماضي في ألمانيا. ومن هناك سافر أبو وائل إلى أفغانستان ومن ثم دخل في شهر آب إلى كردستان متسللاً عبر الحدود الإيرانية.

أخبرني المسؤولون الأكراد أنهم علموا الكثير عن تحركات أبو وائل من أحد السجناء لديهم وهو ضابط مخابرات عراقي يحمل اسم قاسم حسين محمد ودعوني للتحدث معه. وكما قال لي هؤلاء المسؤولون، فإن قاسم شيعي من البصرة، من جنوب العراق، وضابط قديم في دائرة المخابرات العراقية التي عمل فيها لمدة عشرين سنة.

أدخل قاسم، المتثاقل والملتحي، إلى الغرفة ووافق بلطف على إجراء المقابلة. بقي أحد الحراس في الغرفة سوية مع المترجم الذي اصطحبه. أشعل قاسم سيجارة وأحنى جسمه إلى الوراء وهو جالس في مقعده. بدأت بسؤاله عما إذا كان قد أخضع للتعذيب من قبل آسريه. اتسعت حدقتا عينيه وقال، "لا والله لا يوجد أي تعذيب هنا." ثم أخبرني ان علاقته مع الحركة الأصولية الإسلامية بدأت عام 1992 في بغداد بعد أن قابل أيمن الظواهري.

قال قاسم انه كان واحداً من سبعة عشر حارساً شخصياً عهد إليهم حماية أيمن الظواهري، الذي أقام في فندق الرشيد في بغداد ولكنه كان ينتقل من مكان لآخر بصورة سرية. لم يعرف الحارس سبب وجود الظواهري في بغداد ولكن في أحد الأيام رافق قاسم الظواهري إلى أحد قصور صدام وعرف في ما بعد انه أجرى مقابلة مع صدام بالذات.

وقع قاسم أسير أيدي الأكراد اثر آخر مهمة نفذها للمخابرات. استلمت المخابرات العراقية ما يفيد بأن عملاء أمريكيين ألقوا القبض على أبو وائل. أخبرني قاسم، "أرسلتني المخابرات إلى كردستان لأبحث عن أبو وائل والتقي به أو، في الأقل، لأحصل على معلومات حول مصيره. وهناك ألقي القبض علي قبل أن أصل إلى بيارة".

سألته ما إذا كان أبو وائل يعمل إلى جانب صدام، فأجاب، "انه موظف في المخابرات. انه الشخص الفعلي الذي يتخذ القرارات في المجموعة" -أنصار الإسلام- "ولكنه موظف لدى المخابرات". استناداً إلى مسؤولين في دائرة الاستخبارات الكردية فإن أبو وائل ليس في أيدي الأمريكيين بل لا يزال مع أنصار الإسلام. رفض المسؤولون الأمريكيون التعليق على ذلك.

أخبرني المسؤولون في دائرة الاستخبارات الكردية أن لديهم قيد الاعتقال أعضاء في تنظيم القاعدة، وعرفوني بسجين آخر، شاب عراقي عربي يحمل اسم حقي إسماعيل وصفوه لي بأنه عضو في القاعدة يحتل مركزاً متوسطاً إلى عال فيها. ألقت عليه القبض، كما قالوا، قوات البشمرغا وهو يحاول الدخول إلى كردستان بعد ثلاثة أسابيع من بدء الهجوم الأمريكي على

ينتمي إلى عائلة من الموصل لها علاقات وثيقة جداً مع جهاز المخابرات العراقية. فعمه، تقي إسماعيل، هو المسؤول الأعلى للمخابرات في جنوب العراق ويعتقدون بأنه ضابط الارتباط بين جهاز المخابرات العراقية وتنظيم القاعدة.

كان إسماعيل ينتعل خفاً ويلف كتفيه ببطانية. كان يبدو زاهداً في الظهر ومعتداً بنفسه بتفاخر في نفس الوقت. بدا على أنه مسرور لوجود شخص أميركي، وقال للمحققين بأنه لن يتكلم إلى موظف في وكالة الاستخبارات المركزية، فضحك المحققون الأكراد وقالوا له بأنهم كانوا يرغبون في أن أكون من وكالة الاستخبارات المركزية.

قال إسماعيل انه كان طالباً في جامعة الموصل ولكنه تعب من الحياة في العراق تحت حكم صدام حسين. ولحسن الحظ، كما قال، قابل رجلاً أفغانياً أقنعه بأن يبحث عن عمل في أفغانستان. ابتسم المحققون الأكراد عندما قال إسماعيل انه وجد نفسه فجأة في كندهار، ثم في كابول، وبطريقة ما- وهنا بدا حديثه غامضاً جداً- في معسكر لتنظيم القاعدة. وعندما سألته كيف أن التحاقه بمعسكر للقاعدة توافق مع رغبته في البحث عن عمل في أفغانستان، أجاب، "أن يكون المرء جندياً هو وظيفة". وقال انه بعد تدريبه ألحق بوظيفة في وزارة الخارجية لحكومة الطالبان. سألته إذا كان موظفاً في جهاز مخابرات صدام، فأجاب، "أفضل عدم التحدث عن هذا الموضوع".

في وقت لاحق، سألت المسؤولين الأكراد إذا كانوا يعتقدون أن صدام يقدم المساعدة للمجموعات الإرهابية المنتسبة إلى تنظيم القاعدة أو انه يحافظ فقط على أقنية الاتصال معها. أصبح الوقت متأخراً والغرفة أشد برودة. قال لي المسؤول الكبير الموجود في الغرفة، "عد غداً وسوف نعرفك على شخص يجيبك عن هذا السؤال".

6- الرابط مع القاعدة:

كان الرجل الذي قدموه لي بعد ظهر اليوم التالي عربي إيراني بسن التاسعة والعشرين، مهرب وقاطع طرق من مدينة الأهواز. أخبرني المسؤولون الأكراد بأن آخر من عمل لديه كان بن لادن. عندما ألقوا القبض عليه السنة الماضية، وجدوا لفة فيلم في حوزته كانوا قد ظهروا الفيلم، فعرضوا علي الصور. شاهدت السجين وهو يقتل رجلاً بسكين، يقطع أذنه ثم يغمد السكين في أعلى رأس الرجل. كان للإيراني وجه ضعيف وشعر أسود كثيف وشاربان. ارتدى سترة عسكرية ولبس نعلاً وسروالاً سميكاً من طراز غربي. تحدث بلهجة غير مبالية تقريباً، وأخبرني بأنه ولد عام 1973 وان اسمه الحقيقي هو مصطفى منصور شهاب وانه عمل مهرباً خلال معظم سنوات شبابه.

قال، "قابلت مجموعة من مهربي المخدرات. أعطونا مخدرات وأعطيناهم أسلحة" نقلوها معهم من إيران إلى أفغانستان. في عام 1996 قابل أفغانياً عربياً. "كان اسمه عثمان، أعطاني مخدرات وأعطيته مئة وخمسين رشاش كلاشنكوف. ثم قال لي، "يجب أن تأتي لزيارة أفغانستان. وهكذا ذهبنا إلى أفغانستان عام 1996 وبقينا هناك فترة ثم عدت وقمت بعمليات تهريب عديدة. حاول عديلي أن يرسل أسلحة إلى أفغانستان ولكن الإيرانيين كمنوا لنا وقتلت عدداً منهم".

عاد بعد ذلك مباشرة مع عثمان إلى أفغانستان حيث أعطاه عثمان، حسب أقواله، اسم محمد جواد لاستعماله خلال مكوثه في أفغانستان. وقال، أخبرني عثمان، سوف تقابل الشيخ أسامة قريباً. كنا في كندهار، وفي إحدى الليالي أعطوني حبة منومة. ركبنا سيارة سارت بنا لمدة ساعة ونصف على طرق جبلية. ذهبنا إلى خيمة قالوا لي انها خيمة أسامة". لكن الرجل المسمى جواد لم يقابل أسامة بن لادن في تلك الليلة. وأضاف، "قالوا لي، أنت الرجل الذي قتل الضابط الإيراني، ثم قالوا انهم يريدون معلومات حولي ومعرفة اسمي الحقيقي. قالوا لعثمان إن يعيدني إلى كندهار. وأبقوني في سجن هناك لمدة واحد وعشرين يوماً وهم يحققون معي".

أنهى رجال القاعدة تحقيقاتهم وقادوه من جديد إلى الجبال، "أخبروني أن أسامة يقول بأنه يجب

زوجتي إلى أفغانستان. "جعلوه يقسم على القرآن بأنه لن يخونهم أبداً. وقال جواد انه أصبح أحد المهربين الرئيسيين للأسلحة في تنظيم القاعدة. أخبرتني مصادر المعارضة العراقية أن نظام بغداد يهرب بتكرار الأسلحة إلى القاعدة عن طريق الجو عبر دبي وباكستان ومن ثم عن طريق البر إلى أفغانستان. ولكن جواد أخبرني أن العراقيين يستعملون في أحيان كثيرة الطرق البرية عبر إيران أيضاً. أمره عثمان بإقامة طريق تهريب عبر الحدود العراقية الإيرانية. يتظاهر المهربون على انهم رعاة ماشية بغية إيجاد أفضل الطرق. أخبرني جواد، "بدأنا ندخل إلى العراق مع الأغنام والأبقار." ثم أضاف بأنهم دشنوا تلك الطريق بتهريب مسجلات صوت من العراق إلى إيران. فتحوا في الأهواز متجراً، كواجهة، لبيع الأجهزة الإلكترونية وذلك "فقط لإقامة علاقات مع المهربين".

في أحد أيام عام 1999، أوصل عثمان رسالة إلى جواد، الذي كان في إيران آنذاك. كان عليه أن يهرب نفسه عبر الحدود العراقية إلى الفاو، حيث ستقابله سيارة هناك وتنقله إلى قرية قرب تكريت، المقر الرئيسي لقبيلة صدام حسين. اخذوا جواداً بعد ذلك لحضور اجتماع في منزل رجل يدعى لؤي وصفه بأنه ابن حما صدام، خير الله طلفاح. (أخبرني لاحقاً البروفسور بارام، الذي تابع طويلاً أخبار عائلة صدام، بأنه يعتقد أن لؤي، الذي يبلغ الأربعين من عمره قريب جداً من الزمرة الداخلية لصدام). خلال الاجتماع، الذي حضره عثمان أبلغ ضباط المخابرات جواداً بالذهاب إلى بنغازي حيث كان عليه استرجاع عدة علب صغيرة معبأة بمتفجرات. ثم قال انه كان عليه ترتيب تهريبها إلى داخل إيران حيث سوف تستعمل لقتل الناشطين المناوئين للحكم العراقي. بعد أن أنجز هذه المهمة قال جواد انه أعطي ألف رشاش كلاشنكوف من قبل المخابرات العراقية، وأخبر أن عليه تهريبها إلى أفغانستان.

حدث تطور جديد بعد انقضاء سنة واحدة، طلب عثمان من جواد تهريب عدة عشرات من محركات الثلاجات إلى أفغانستان لحساب المخابرات العراقية، وربط بكل محرك علبة مملوءة بسائل. قال جواد بأنه طلب من عثمان معلومات اكثر، "قلت له، ماذا تحتوي تلك العلب؟ فأجابني، "حياتي وحياتك. سوف يقتلنا عملاء المخابرات العراقية إذا لم نقم بهذه المهمة. هذا كل ما أستطيع قوله".

وأضاف جواد، "أعطيت دفتراً من الدولارات" يعني ذلك عشرة آلاف دولار. قيل لي أن أدير أمر تهريب المحركات. وقال لي عثمان إن علي أن أقتل كل مهرب يساعدني بعد أن نصل إلى هناك." كانت شاحنات تابعة لحكومة الطالبان تنتظر على الحدود، وقال جواد انه سلم محركات الثلاجات المملوءة بالسائل ثم قتل المهربين الذين ساعدوه.

وزاد جواد قائلاً انه كان يجهل طبيعة السائل الموجود داخل المحركات ولكنه افترض انه كان نوعاً من سلاح كيميائي أو بيولوجي. سألت المسؤولين الأكراد الذين بقوا معنا في الغرفة إذا كانوا يعتقدون ذلك، أي إذا كانت المخابرات في أواخر عام 2000، تنقل أسلحة كيميائية أو بيولوجية إلى القاعدة. أجابوا بحذر، "ليس لدينا أي فكرة عما كانت تحتويه هذه العلب، انه شيء يجدر أن يحقق به الأمريكيون".

عندما طلبت من جواد أن يقول لي لماذا عمل مع القاعدة، أجاب، "المال." لم يقل كم هو المبلغ الذي دفع له ولكنه أشار إلى انه كان كبيراً. كان لدي سؤال آخر طرحته عليه، كم عدد السنوات التي دامت فيها العلاقة بين القاعدة ونظام صدام حسين؟ فأجاب، "كانت هناك علاقة بين المخابرات وأعضاء القاعدة منذ عام 1992".

قالت كارول أوليري، الخبيرة بشؤون الشرق الأوسط في الجامعة الأميركية في واشنطن وهي متخصصة بالشأن الكردي، إن من المحتمل أن يكون صدام قد سعى إلى تحالف مع إرهابيين إسلاميين لخدمة مصالحه. وأضافت، "أعرف أنه يوجد عملاء مخابرات عبر كردستان. ويتمثل أحد الأساليب التي تستطيع المخابرات من خلالها زعزعة التجربة الكردية في الديموقراطية ربطها بمجموعات أصولية إسلامية. إن مصالحهم تتشابك تماماً. فكلاهما يخشى من التجربة الديموقراطية المدنية للأكراد في ملاذ آمن، ومن الواضح أن لدى كليهما كرهاً مشتركاً للولايات المتحدة".

عن مجلة ذي نيويوركر